عنوان المحاضرة الثامنة :

السرد العجائبي

عنوان المحاضرة الثامنة :السرد العجائبي

ظهر نوع من القصص الخرافية، وهو ماعُرف بالقص العجائبي ،وتطور إلى توجه خاص في السرد العربي القديم

أولًا – مفاهيم حول السرد العجائبي Fantastique:

حفل التاريخ الأدبي العربي بالعدد من المرويات، التي تناولت قصص عجيبة،وعرضت أحداث ومغامرات خارقة للعادات البشرية ، وهو ماسنقف عنده فيما يلي :

1–مفهوم القص العجائبي:

أ–العجيب:العجيب هو المدهش المذهل الخارق،في الاشتقاق الكلمة اللاتنية mirabilia تعني دهشة مصحوبة بخوف أو إعجاب يصعب تفسيرها مناقضة لمفهومي الواقعي والمألوف ».

ومنه فالعجيب هو الأمر المرادف للغريب والمدهش والخارق للمنطق والمألوف، ويصعب تصديقه.

ب– القص العجائبي

هو لون جديد في السرد العربي القديم« وتحدد مفهوم العجائبي بأنه يمثل خروقات للقوانين الطبيعية والمنطق،ويعمل على تأسيس منطقه الخاص به ويعكس في تجلياته المتباينة منطق الحياة وقوانينها،وهذا مايمكن أن نبحث عنه ابتداء في بناء النص وتشكيله».

القص العجائبي هو نوع من الحكايات يُقدم لنا كائنات وظواهر فوق طبيعية تتدخل في السير العادي للحياة اليومية، فتغير مجراه تمامًا، وقد يشتمل على حياة الأبطال الخرافيين، الذين يشكلون مادة للطقوس والإيمان الديني

2– مفهوم البطل الخرافي :هو البطل الذي تقدمه الحكاية الخرافية،ويتصف بأنه ينحدر من أصل نبيل غامض،أو تقوده سلسلة أفعاله البطولية إلى مرتبة عالية من النبل والمهابة، ويحتل البطل الخرافي مكانة هامة في الحكاية العجيبة، فيعد الشخصية المحورية» .

إن البطل الخرافي هو الذي يقوم بأفعال خارقة للعادة وللطبيعة البشرية،وهو محرك العمل القصصي«وللحكاية العجائبية سحرها الخاص فهي تتوجه بالأساس للإمتاع،الذي يُعد خصيصة مهمة من خصائص العجائبي فالأمر العجيب يدعو إلى الإمتاع،وآية ذلك أن الناس جميعًا ،حينما يحكون حكاية يضيفون من عندهم العجب لإضفاء جو من الإمتاع والتشويق،ويوجد التخييل الأدبي في الحكاية العجائبية بحكم طبيعته الشخصية في مواجهة بطريقة واعية أولًا بالتنسيق التشخيصي الجماعي،الذي يهيمن على مجتمع خلال فترة ما».

مماهو معلوم أن طابع المبالغة والتهويل من خصائص القصص العربي ، وغاية ذلك هي زيادة تشويق المتلقي، وشد انتباهه لجو القصة

ثانيًا: نماذج من السرد العجائبي :

وردت نماذج عديدة للسرد الخرافي، وهي ناتجة عن تأثر العرب بالثقافات الأجنبية كالفارسية والهندية، ومنها سنعرض للنماذج الأتية:

1–عجائبية السرد في ألف ليلة وليلة :

احتلت قصص "ألف ليلة وليلة "شهرة كبيرة في الأدبين العربي والعالمي، ونالت اهتمام القراء بها عبر العصور« وكان هؤلاء القصاصون الذين تشكلت على أيديهم"ألف ليلة وليلة" خلال عدة قُرون ورثة لتقاليد عربية إسلامية في القصص، وتجدر الإشارة إلى أنه من الصعب أن نحدد لليالي عصرًا بعينه،ومن الصعب أن نحدد للقصة بعينها عصرًا معينًا،ولكن هذه الصعوبة في أمر البيئة لاتهم كثيرًا ».

رجعت صعوبة تحديد عصر لكل حكاية لكونها روية شفاهةً،ويعد المسعودي أول من أشار إلى أن أخبار ألف ليلة وليلة منتحلة في قوله:«إن هذه أخبار موضوعة من خرافات مصنوعة نظمهامن تقرب للملوك بروايتها" ».

وفي هذا الصدد أشار د.أحمد أمين إلى الأصل الهندي للكثير من قصص "ألف ليلة وليلة"،ولاسيما قصة السندباد،وانتهى د.موسى سليمان إلى القول بأن ألف ليلة وليلة مزيج من آداب مختلفة وثقافات هضمها العرب هضمًا كليًا وصبغوها بلون عربي بارز،وتعد الحكايات العجيبة من أكثر الأنواع القصصية الشعبية على متن الليالي،فنماذجها الكثيرة تمتد من بداية الكتاب إلى خاتمته،وليست المفارقة بجديدة في الآداب السردية العربية،إنها مثل مجون الليل وتقوى النهار المتجلية في مجالس العباسيين كما ظهر ذلك في كتاب ألف ليلة وليلة».

نال الفضاء العجائبي الحظ الأوفر في قصص ألف ليلة وليلة،ورجع ذلك للتناقضات التي عاشها المجتمع الإسلامي «واحتوت قصص ألف ليلة وليلة على النوع الحكائي الشعبي ،وتمثلت قيمه التمثيلية وإمكانياته التشكيلية،ولم تحد به عن منابع رؤيته الحالمة، ولازاغت بأبعادها الصورية عن أصول تداعيها المفارق ولكنها عمدت إلى تكييف مبنى النوع مع مواضعاتها النصية في التصوير بإسناد الرواية إلى شهرزاد وتضمين النص السيري حكايات فرعية تشذ عن أصول بلاغته النوعية،وتكاد وسائل التمويه تُشكل العمود الفقري لانسياب الخطة وليونتها، وقابليتها لإدخال الإيهام بالتصديق على شرائح مختلفة متعاقبة،والتعامل مع كل شريحة بما يتلائم معها، وشهرزاد هي رواية لجميع القصص« وكانت شهرزاد ضليعة بأساليب السرد، ومتمكنة من تقنيات الحكي،وأرادت شهرزاد أن يكون الناس جميعًا مؤلفين وقارئين في وقت واحد ،وهنا تتعدد القراءات المقدمة لقصص "ألف ليلة وليلة عبر العصور».

ظهر البعد الإنساني في ألف ليلة وليلة،فتعد أبرز إسهامات العرب في رصد تاريخ المشاعر البشرية على مر العصور «وبقي أن نقول بأن كتاب "ألف ليلة وليلة" أثَّل مصطلح الحكاية العربية الذي يوحي بالشعبية والشفوية».

ورغم تعدد مصادر كتاب "ألف ليلة وليلة إلى أن الروح العربية ظلت بارزة خلال مناخ الحكي، ومنها ماظهر في «تلك العبر الحكايات التي تسمى ألف ليلة وليلة ، ومافيها من الغرائب والأمثال ».

دخلت قصص ألف ليلة وليلة ضمن الإطار الشعبي العربي ، وفيها حكاية كبرى تفرعت عنها حكايات فرعية ، ومنه فنص ألف ليلة وليلة هو نص مفتوح لتعدد القراءات والتأويلات .

2-السرد في رسالة الغفران لأبي العلاء المعري :

في البداية نشير إلى أن المعري (ت449هـ) كان يتحدى أدباء عصره وفنونه،ويؤلف في كل لون وموضوع سبقه ليثبت تفوقه فيه «وينتمي نص رسالة الغفران إلى أدب الجواب؛ لأنه جواب على رسالة ابن القارح، وتتلخص قصة أبي العلاء التي هي جزء من رسالة الغفران في رد أبي العلاء على رسالة ابن القارح،فينعطف في رده إلى تخيل ابن القارح في الجنان يتمتع بنعيمها،وقد حضر مجالس العلماء فيها،ثم نزهته في أرجائها يطوف على الشعراء».

عادت فكرة رسالة الغفران للمعري لحادثة الإسراء والمعراج الشهيرة،التي أقام لها الرسول (ﷺ) وهنا المعري امتلك خيال واسع،فكانت له مناظرات مع العلماء والشعراء « ورسالة الغفران هي عبارة عن كوميديا إلهية مسرحها الجنة والنار،ويعد نص رسالة الغفران شديد الثراء تتنازعه مجالات عدة مثل تاريخ الأفكار،وعلوم اللغة،والمذاهب الفلسفية،والمعتقدات الدينية، وهو ينتمي إلى تاريخ

الفن القصصي الخلاق».

ظهرت براعة المعري في السرد في إبداعه لمضامين جديدة ،وعرضها في أسلوب سردي مشوق ،واعتمد على مخياله الواسع في سرد الأحداث «وتمدنا رسالة الغفران بأهم جانب من جوانب فلسفة المعري،ونرى باستحياء المعري للأسطورة استحياء مدهشًاوتتكون رسالة الغفران من قسمين :الأول يصف فيه المعري إضافة إلى مشهد القيامة تجوال ابن القارح في الفردوس ، وأما القسم الثاني فشكل مركز الرسالة يتخلى فيه المعري عن الخطاب التخييلي ، وتوجد الأساطير كمصدر قصصي للحكاية عند أبي العلاء ، ومعظم هذه الأساطير تنتمي إلى عالم الحيوانات والزواحف».

كشفت رسالة الغفران على ثقافة المعري ،وامتلاكه لعلوم لغوية وأدبية،وتنقسم الرسالة إلى قسمين فالأول:خاص بابن القارح وتجواله في الجنة ،ومشاهد القيامة، وهذا القسم ليس له فائدة إذا ماقُرن بالقسم الثاني فهو أطول وأهم من حيث تضمنه على قصص مصدرها أسطوري، ولمعرفة طريقة المعري في السرد العجائبي نجده «نسج ألوانًا من الفن القصصي تتراوح أشكالها بين التعبير القصصي،والمشهد القصصي والمشاهد المتابعة والقصة المكتملة،ويتحقق في بعضها الكثير من العناصر المألوفة في الفن القصصي من التشويق والعقدة والمفاجآت والحل....ويلاحظ أن المشاهد القصصية تتوالى في سهولة ويسر بل وفي مستوى لغوي ميسور».

لاحظنا تنويع في طريقة السرد عند أبي العلاء المعري من القصصي إلى المشهد القصصي ثم المشاهد المتابعة مع وجود قصص مكتملة جمعت كلها عناصر التشويق والعقدة والمفاجأة والحل مع لغة بلاغية مفهومة.

تضمنت رسالة الغفران قصص عديدة،ومعظمها كانت جزئية «والقصة التي بلغت أوج الاكتمال في رسالة الغفران قصة ابن القارح نفسه في موقف الحشر،فهي تعد قصة مكتملة بالمعنى الفني..وتعد رسالة الغفران أغنى آثار المعري تعريفًا بفلسفته ،كما نجد فيها فنية أكبر حبكة ودقة وانسجامًا،وتشهدُ بأنها كانت في قمة اقتعادِه الفلسفي،وبلوغه الأوج الفني الشّامخ،وقدم المعري أقدم أثر رمزي رائع جعله الخليق بأن يُعد أبًا الرمزية في الأدب،وإن كان المعري قد سجل فخرًا بملهاته الإلهية،فقد سجل برمزيته فيها فخرًا أكثر ومايثبت النزوع القصصي لدى المعري،وهو رده بأسلوب قصصي على رسالة ابن القارح،ونسج المعري أحدث قصصه من خياله الواسع».

يعد هذا النوع من القص تطورًا لافتًا في العقلية العربية،فبعد أن كانت الموضوعات الفكرية تقدم بصورة رمزية بالإضافة إلى «مايسود حديث أبي العلاء في الغفران من حس الفكاهة والسخرية ».

ومنه كانت الرمزية الفكاهة والسخرية من أهم الخصائص السردية في رسالة الغفران ، وفي سياق متصل ترى د. عائشة عبد الرحمان أن «الذين قرءوا رسالة أبي العلاء أو درسوها دون أن تكون رسالة ابن القارح بين أيديهم تعذر عليهم فهمها على وجهها الصحيح، وأصدر بعضهم عليها، وعلى صاحبها أحكامًا نقدية بالغة الخطر».

دعت د. عائشة عبد الرحمان إلى إعادة قراءة رسالة الغفران قراءة عميقة، وباستحضار رسالة ابن القارح معها للفهم الصحيح للقسم الأول من رسالة الغفران.

وهنا نشيد بتفوق المعري في تقديم سرد قصصي فريد من نوعه، بحيث استطاع من خلال رسالة الغفران معالجة قضايا أدبية وفلسفية بالغة الأهمية، كما أن المناخ السردي الذي خلفه هو من نسج خياله الواسع .